نهضة وقصة في الدير

تحقيق : محمد عبدالحليم عبدالله

لم تكن هذه هي المرة الاولى التي اجتاز فيها الى هذا العالم الغامض حيث تطل النوافذ المقفلة الخضراء والأبواب الحديدية السوداء على الحديقة المزهرة .. سعيت الى هذا المكان متذاعين بدعوة من الاب الشاب ج . موو، حيث تناولت الغداء مع الرهبان . ودير الآباء الدومنيكان في سمحراء العباسية .

كنت احمل فكرة شيقة واعرف ثلاثة اشخاص هناك . واصعد طريق شارع مصنع الطرابيش في يوم جمعة دافيء . هناك عمال يهدمون رصيف الطريق وعمال يصلحون عددا كبيرا من سيارات النقل وقفت على طول الشارع كقطار مفكك العربات . والشارع آخذ في الارتفاع . هناك اسوار لمدارس ومصانع وهناك جوانب لحقتهما بالعمران . الحركة العميقة والسكون الذي لايقطعه الا همس القراءة او العبادة بما يتصل بضجيج الحياة .

وما ان وصلت الى باب الدير ولاح لي ميناء ذو الطبقتين على يساري حتى فطنت على يميني الى شيء آخر يستحق الانتباه . فعلى مدى ارتفاع الأشجار المغروسة في حديقة الدير والتي تجدد عمره . هناك مدخنة لمصنع مقابل .. الدخان ينبعث منها كثيفا ملحا يشير الى العمل كأنه نبض القلب . فرأيت على يميني طريقا يؤدي الى الله وعلى يساري طريقا يؤدي الى الله : « العلم والدين » لم يشعر العلم بدخانه وضجيجه وحركته في المصنع بغربة

الدين عنه .. تجاورا فى الصحراء من قديم قبل أن تزحف المبانى هناك . وعندما يحن الليل وتسكن حركة العلم ويكف المصنع عن التدخين تكون حركة الروح فى المبنى المقابل على أشدها . ففى مكتبه الدير أو حجرات (الآباء) بحث ودراسة عن الله والروح وعلاقة الانسان بالانسان . وفلسفة وأدب . وترجمة وتأليف ..

وعندما احترت الباب تسلل السكون الى نفسى . سكون لا وحشة فيه . تؤنسه فى صمت مطمئن روح من الله . ولم يسألنى أحد « من ؟! » ولا الى أين ؟! » لان اغراض المقيمين والوافدين يحدثها مثل هذا السؤال .. على يسارى الحديقة بأزهارها التى ترنو الى الله الذى عطرها . وبأشجارها ومماشيها ومقاعدها الخشبية . وبعض طيور لم أعرف اسمها كأنها تصلى .. حومت حول عرائش الشجر ورفرفت فى السماء الصافية .

والمبنى القرميدى الأحمر ذو الأبواب الحديدية السوداء والنوافذ الزجاجية كان على يمينى . فسرت على أن أبدد سكونه حتى بضرب الجرس . ووصلت روحى الى تلك النقطة التى يصعب فراقها . نقطة التجرد والانطلاق والسعة والقدرة . لحظة لا تريد على توان يشعر فيها الانسان (الماء والطين) انه تخطى قيوده المادية التافهة العويصة وأنه قادر على أن يسمو أو يحلق أو يطير . ومضة برق وتنقضى . كأنما لتؤكد للانسان صلته بالأصل الأعظم .

ولا يليث الفرق العظيم أن يتجلى للعين من جديد . بين الأصل الخالد والكل الأكبر وبين الفرع الفانى والجزء الصغير ..

وتهدف كأنما ألقت بى سفينة الفضاء الى الأرض التى كنت أراها منذ قليل كرة تصغر فى الظلام وتصغر فى النور . وصعدت الدرج نحو الباب الحديدى فلم أر فى البلور حتى خيالى . ودققت الجرس حتى سمعته ثم ساد الصمت . صمت منبع كان يأتى من الداخل ويخترق حديد الباب . اختلط بالصمت الخارجى المطل على الحديقة والمماشى وواجهة المبنى كرواعد تصب فى مجرى النهر .

ـ الأب قنواتى من فضلك .

ـ آه .. تفضل من هنا .

وتهلل وجه جاد جدا وديع جدا مصرى جدا . لرجل اسمه « رمضان » كأنما لمست كل صلوات « الآباء » الستة عشر وجهه مثل كف شرقى فياض بالأمان الذى يعرف الخوف والطاعة التى لا تعرف الملل . وان بدا فى عينيه معنى من « العزلة » لم أره فى عيون الآباء .

فى حجرة الاستقبال منصدة صغيرة مرتفعة عليها مفرش مخملى رمادى . جلست أرسم على ورقه حروفا كأنها اسمى حتى أخرجنى من وحدتى صوت مرح وفور متدفق أعرفه . بيراته تشبه خطوات صاحبه . سريعة منكمشة الى الأمام . مبتسمة تعرف طريقها . لها صلة ـ بحكم المولد ـ بمدينة

الاسكندرية ـ صاحبة المكتبة الشهيرة في التاريخ ومدرسة افلوطين الفلسفية. هذا الأب من مواليد هذه المدينة رئيس الدير ، الأب قنواتي ، الصديق الحميم لأبي سينا العالم والفيلسوف العربي والذي كتب عنه وحاضر .

ـ اهلا .. هل أطلب القهوة ؟ .. حالا سيجيء كل الآباء .. هل رأيت المكتبة ؟ .. ماذا تعمل الآن ؟ .. لقد زرتنا هنا وكنت عائدا ..

نظرت اليه وانا اتبسم فهو في نشاط سن العشرين ، يمكنه ان يتكلم في عدة اشياء في وقت واحد . ذلك الصيدلي الفيلسوف الأديب ، وتركني وانصرف ليرد على التلفون ثم عاد وبعده الأب ح موبو ، صديقي الذي عرفته منذ ثلاث سنوات ، ثم الأب ح جوميبه الذي رأيته للمرة الأولى .

صرنا اربعة ، كل منا يأخذ ـ بالتساوي ـ صلصا من سطح المائدة ويضعنا اربعة اقداح من القهوة ويضع فيها السكر بالتساوي .

الأب موبو شديد الاطراق ، اصغرهم سنا ، لم يعد الثالثة والثلاثين ، ذلك البارسي الذي ناداه الله (على حسب تعبير الأب قنواتي) المولود على مقربة من ميدان « الكونكورد » .. ميدان الوفاق .. ودار الاوبرا ، يتكلم العربية بدرجة تقع في الوسط بين طلاقة الأب قنواتي الإسكندراني وعكسها في الأب جوميبه ..

كنت في مواجهة الأب جوميبه على المنصة ، لم استطع ان اثبت نظراتي في عينيه طويلا فهو وان كان يخطو نحو الخمسين ذو نظرات في حدة المثقاب ، وجهه المربع وذقنه العريض وابتسامته الكبيرة على فمه الواسع وشيبه المركز على الصدغين وعيناه الثابتتان في لون سماء البحر ـ جعلتني اشعر انني امام شخصية (أعيد خلقها) صورها رواني أو رسام ، تكمن في ملامحها المعرفة البعيدة الأعماق .

اما الأب موبو فهو على عكس الأب جوميبه .. لم ار لون عينيه ولو انني جالسته عشر مرات ، يميل وجهه الى الاستطالة ودقة التكوين ، ولون الحياء وجهه اذا ما شرع في الحديث ، تثير ملامحه في النفس ذكريات التصحية ، ويحدثك كأنه يقرأ في كتاب ، ويشعرك انه يقوم بواجباته الى حد الارهاق ، لا يبالي بشيء الا الواجب .

بين هؤلاء الآباء الثلاثة تركت روحي تتنقل ـ وامتلأت عيني بصورهم كما تمتلىء بشعاع الشمس ، وبدأنا نتكلم في الأدب فاذا بهم قد قرأوا كل مهم في ادبنا الحديث والقديم .

فقد قرأ الأب جوميبه شعر عباس بن الأحنف « ترى هل يحفظ له كثيرا كثير من شعرائنا الشباب ؟! » ، ويكب الأب موبو بحثا كبيرا عن العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الفارسية وترجم الأب قنواتي دموع اطلس للوزير السابق الاستاذ فتحي رضوان ..

* * *

سألت الاب قنواتي عن اسمه بالكامل فقال « جورج شحاته قنواتي » . ثم استطرد في مرح وهو يقول : واذا اردت تعريب الاسم فهو جرجس شحاته قنواتي . فاستطردت انا مسرعا للعربية :

ـ واذا عربنا اسم الاب موتو واسم الاب جوميبه فماذا تقول ؟

رد الاب قنواتي :

ـ حسنا جوميبه يمكن ان يكون « ركي جمعه » .

وضحكنا .. ولمعت عينا الاب جوميبه سرورا باسمه الثاني . ووقعنا في مشكلة حين اراد الاب قنواتي تعريب اسم الاب جوردان موتو .. استعصى على التعريب . اعتصر شخصيته في استحياء شديد كصاحبه الطيب تماما . قلت للاب قنواتي :

ـ حدثنا عن الرواية التي احببتها .

انطلق نحو المنضدة ذات الغطاء المخملي . رسم باصبع يده التي مارست وتمارس الكيمياء حتى الآن حروفا مبهمة ثم رفعه الى عينين اصنتهما الحملقة في انابيب الاختبار وقال :

ـ قصة القرية الظالمة .

قلت :

ـ ذلك طبيعي فهي من وجهة نظر مؤلفها تعطي موقفا انسانيا عظيما . موقفا دينيا واجتماعيا في وقت واحد .

قال الاب قنواتي :

ـ لذلك فقد كتبت عنها بحثا طويلا القيته في مؤتمر الاديان الذي عقد بمدينة « روما » سنة ١٩٥٦ .

كما انني على الرغم من مشاغلي في الفلسفة والكيمياء حللت وكتبت عن (حديقة الله) لجبران خليل جبران وترجمت كما قلت لك دموع ابليس لفتحي رضوان .

وانا احب الادب .. لا تظن ان الادب والفلسفة متناقضان ..

فضحكت :

ـ انهم ابناء عمومة . بل بالعكس . لقد قال لي بعض ادبائنا الكبار . ان هواية (العلم) من اعظم الطرق التي تعيد ترتيب فكر الاديب . آه .. ربما ووجداته . واذا كانت العلوم ذات اثر مؤكد في انتاجنا الادبي فما بالنا بالفلسفة وعلم النفس .

ـ ان المعارف الانسانية تكون كلا عظيما . نعم . وقد قرأت الجيل الاول كله . وقرأت الجيل الثاني والثالث .. واني قد رأيت مكتبتنا .. ثم ان القراءة شيء حبيب الى نفسي . غير اني اعتقد ان صديقك الاب موتو قرأ في الادب اكثر مني ..

ونظرت الى الاب موتو فاذا بتواضع الاب قنواتي قد اخرج تواضع الاب موتو . فضحك وهو مطرق وفرك كفيه الكبيرتين المستطيلتين فقلت له :

ـ اذن .. آن الاوان لتحدثنا عن نفسك .

رد الاب فيما يشبه الاحتجاج :

ـ نفسي ..

استدركت :

ـ اقصد تاريخ حياتك .

ـ اتممت دراستي الثانوية بباريس ثم التحقت بالحقوق لمدة سنة وبالآداب لمدة سنتين في جامعة السربون .

وطبعا .. لم اكمل الدراسة بل التحقت بالكلية الاكليريكية وتحولت الى الدير. فدرست الفلسفه واللاهوت ثم رحلت الى تونس حيث درست اللغه العربية. وجئت الى مصر سنه ١٩٦٠ .

ـ من أحببت من كتاب وطنك ؟

ـ كان لابد ان أقرأ . ومن الصعب ان يتذكر الانسان كل ما قرأ . انما يتذكر الانسان بعض ما قراه اذا كان هناك ما يدعو . غير انى احببت بلزاك وستندال وفلوبير ومن المعاصرين اندريه مالرو وزير الثقافة . وجورج برنانوس. واحببت كامي جدا فى قصه الطاعون ..

ـ ومن قرأت من كتابنا ؟

ـ معظم كتاب الجيل الأول ـ ومن الجيل الثانى نجيب محفوظ ويوسف السباعى ويوسف الشاروني .. وساكتب ترجمة طويله عن حياة القصاصين المصريين الذين احبهم من الجيل الثانى وساشرها باللغه الفرنسيه . واعتقد ان ما نكتبه عن الأدباء العرب يقرأ كثيرا خارج البلاد العربية ..

وأمن الأب جوميه على قوله . ونظر اليه . كان كما رايته للوهله الأولى ابتسامته الكبيره على فمه الواسع وعيناه الثاقبتان ترقبانى كنجم قريب . سألته :

ـ ما تاريخ حياة الأب ؟

ـ ولدت فى باريس بالقرب من (الاتوال) . اتممت دراستى الثانوية ثم دخلت مدرسه الهندسة بباريس . ثم الدير فى بلجيكا ثم مدرسه اللغات الشرقيه فى السربون حيث تعلمت علوم اللغة العربيه والأدب .. وأنا من أسره تحب الفن .

ـ الفن ؟!

ـ نعم .. الفن ..

ـ الفن التشكيلى ؟!

ـ نعم ..

وصمت . ونظر لوهلة الى اللوحة المرسومه فى النافذة .. نافذة الحجرة كان فى اطارها لوحه الهيه من السماء والحديقة . زرقة وخضرة والوان اخرى . ثم القى نظرة الى .

ـ نعم .. جدى لامى كانا رساما . واختى كانت رسامة ..

سرح خاطرى .. انا .. قلت فى نفسى

الفن جميل يؤدى الى الله . كما يؤدى العلم والدين . اى شيء تخلو به مرآة القلب حتى يرى ربه .. فان الله يحبه .. علم او دين او فن او ادب .. صلوات اختلفت انواعها . تحول الفحم الى ماس شعاع متعدد الزوايا يعكس الوان الطيف واضواء النجوم . فقط .. يسعى ان تكون جادين فى اعمالنا . باحثين عن الجوهر الحقيقى للعمل والفن .. لعمل الموجب بالسالب لتنبثق الشرارة المقدسه .

وعدت أنظر الى الأب جوميه الذى قال

ـ انا ساحدثك عن شيء طريف عن بلزاك وجرين وكلوديل وكامى وسارتر. ساحدثك عن افريقيين عرب وافريقيين خالصين كنت عليم باللغة الفرنسية .

وتركنى وقام ليعود بكراسه ذات جلد فى لون ماء البحر . فتحها واخذ يقرأ ويعلق ويتكلم قال :

ـ كنت عن محمد ديب .. ومولود فرعون . وهما من الجزائر العربية .

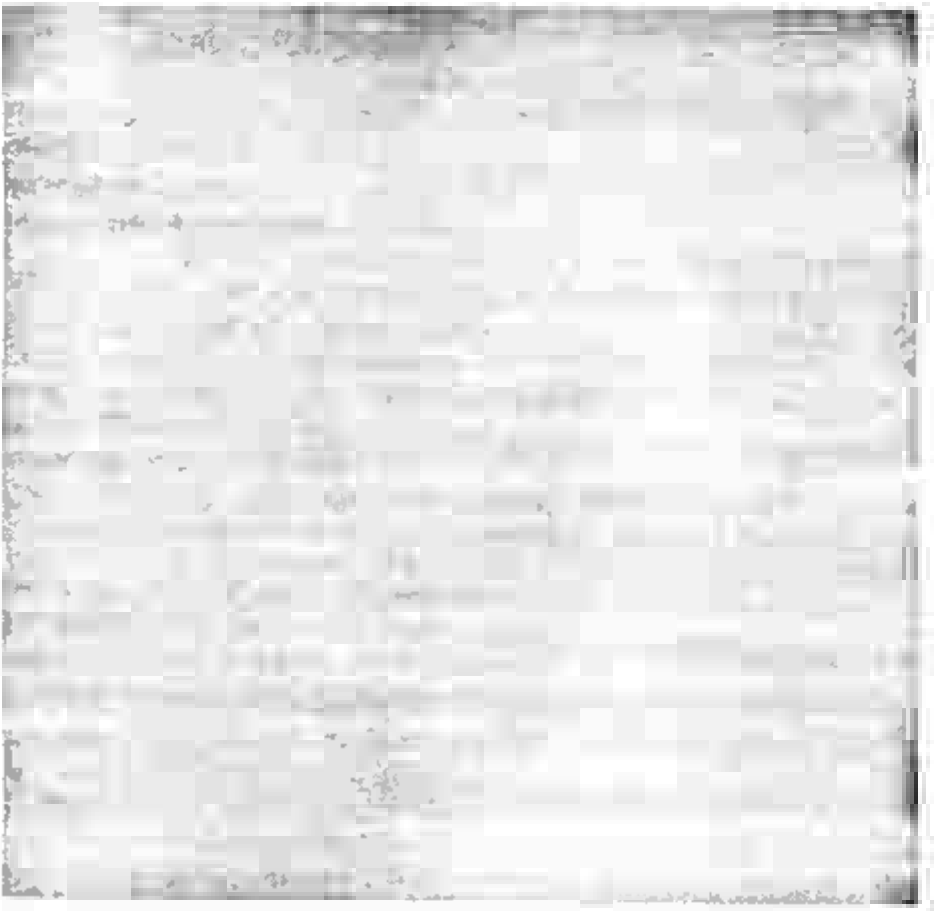

● وصمت . ونظر الى اللوحة المرسومة فى النافذة ●

وعن اديب من السنغال اسمه حمدو حان له رواية بعنوان «المغامر» العاصفة» .

وكنت عن مصري من نجيريا وهو كاتب تقدمي عنده حساسية شديدة في تصويره للجو العام وللبيئة اكثر من الشخصيات . وعن روائي من السنغال اسمه عثمان سامبي يصف حياة العمال وأدبه في الدعاية اثقل وزنا منه في ميزان الأدب . وعن قصاص من جزيرة (هايتي) تلك التي ينتسب أهلها الى الافريقيين بحكم الهجرة والاجداد . له رواية اسمها (الأشجار الموسيقية) فيها حنين للوطن افريقية .. وفيها تبشير بالماركسية .

وفرات لكم جميعا .. كل الاحيال

وكنت من نجيب محفوظ وثروت اباظة الذي اعجبني له جدا قصة هارب من الايام . لان فيها شيئا وراء الواقعية

— واقع فوق الواقع

— نعم . هرتني .

— وانا ايضا ..

وهززت راسي في سرور وانا انظر الى الاباء من حولي . كما في حديث للديك كجزء من العبادة . نبحث عن حقيقة النفس عن طريق الأدب . وتذكرت شخصية احبها .. احبها جدا .. ذكرتها لان فيها صفة مشابهة وصفة عكسية من الرجال الذين انا معهم الآن . آباء حليمو الذقون وهبوا عمرهم لله والروح . والشخصية الأخرى كانت ذات لحية طويلة . في بياض الزبد . كقديس لم يقص منها شعرة . وكان يحب الله في الناس ويحب الناس في الله . ذلك هو ليو تولستوي . وسألتهم فجأة :

— ما رأيكم في تولستوي ؟!

ردوا ثلاثتهم :

— عظيم

سألت الأب مونو

— رأيك بالتفصيل .

— احبه أدبا وأنفا .

سألت الأب فنواتي . فقال

— مثل رأي الأب مونو .

اما الأب حوميه فقد قال بابتسامته الكبيرة :

— هو كانسان عندي في المكان الأول لكن كفنان فان دستويفسكي أحب منه عندي . ودستويفسكي هو الذي قال « اذا كان الله غير موجود فكل شيء مباح » .

كان مطر ان انضم اليه . لكني انصمت الى الأب مونو . قلت :

— لقد شغلني كاتب (الحرب والسلام) والذي احب الله والانسان من أن أوازن بينه وبين دستويفسكي الذي .. احبه .. ايضا ..

ضحك الآباء الثلاثة ..

ونظرت في ساعتي . كان الظهر قد حان واحسست أن الوقت يمكن أن يمر بسهولة حتى لو بقيت للهداية اليوم ولكن الآباء كانوا على موعد ..

خرجت وهم معي حتى الباب . وهبطت السلم الى صحن الحديقة وازهارها . وكان الحر صعبا بكل ما يسر . كنت مرتاحا احسست انني خلقت حولة فريدة . وعند الباب كانت مدخنة المصنع ترسل دخانا عزيزا . والشارع يموج بالحركة والشمس تعرش الأرض والتلال . وانا اردد بيني وبين نفسي آخذا طريقي الى المدينة :

« ما اكثر الطرق التي تؤدي الى الله . ما اكثر الطرق التي تؤدي الى الله » ..